

وظائف العسكرية بمصر في عصور الوسطى

كانت من أهم الفئات في العصر المملوكي الأول الفئة التي تسميها المصادر «أرباب السيوف» وهم رجال الجيش ولم يكونوا مصريين وكانوا ينفذون أوامر السلطان وينصرونه ويعتمدون عليه في أمورهم المعاشية وبعض الأحيان كانوا يسيئون استعمال الذي يتمتعون به. ومن بين المناصب الهامة التي كانت بيد هذه الفئة بالإضافة إلى السلطان وهم نائب السلطان، أتابك العسكر، ناظر الجيش، صاحب ديوان الجيش، مستوفي الجيش، مستوفي الرزق، نقيب الجيش، نقيب المماليك، أمير السلاح، أمير المجلس، أمير الطبلخاناه، الداودار الكبير، أمير أخور، رأس النوبة، صاحب الحجاب، أمير خازندار، أمير مئة مقدم ألف، مقدم المماليك وقاضي العسكر. وهم يشكلون «أهل الدولة». وهؤلاء يعتمدون في معيشتهم على الدولة التي تقدم لهم مقابل خدماتهم إقطاعات أو بدلات مالية في صورة مرتبات.

1- السلطان

كان السلطان على رأس الدولة المملوكية وكان سلاطين المماليك في الأصل من كبار أمراء الجيش يختارهم الأمراء من بينهم. وكان هؤلاء يصلون إلى القاهرة صبياناً عن طريق الشراء أو فتیاناً أسرى حرب، أوسماً مقرأً على دولة تابعة أو خاضعة، أو هدايا من دول صديقة أو حليفة. وفي القاهرة كانوا يخضعون لتربية إسلامية وأخرى عسكرية لعدة أعوام. حتى إذا انتهى تدريبهم جرى تحريرهم وضمهم إلى الهرمية العسكرية المملوكية. ويمكن القول أنه من أسباب انحطاط الدولة المملوكية في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، أن المماليك لم يعودوا يشترون صغاراً، بل صار يؤتى بهم إلى مصر رجالاً ويدخلون الجيش دونما تربية إسلامية متأنية، فظل هؤلاء الجدد. غرباء في البيئة المصرية، ولم يستطيعوا الائتلاف مع حقائق الحياة في البلاد التي استجلبوا إليها. وبسبب تساوي كبار الأمراء المماليك في الأصل والتربية وتقارب قوتهم ووزنهم في الهرمية العسكرية، فإنه لم يكن ممكناً أن تخرج من أوساطهم ملكية وراثية. لكن هذا لا يعني أن الأمراء الذين وصلوا إلى السلطة لم يحاولوا أن يورثوا أعقابهم من بعدهم. إن إخفاق المبدأ الوراثي كانت له آثاره الإيجابية على قوة السلطة والسلطان في الغالب كما أنه لم تكن هناك حقوق ملكية وراثية تفرض تولية أبناء السلطان بعض الأقاليم أو النواحي مما يؤدي إلى انقسام الدولة لدويلات من بعد مع ما يتبع ذلك من ضعف وتشرذم ثم سقوط للسلطنة لحساب دولة وسلطنة أخرى كما حدث للسلاجقة. ذلك أن الأمراء الصغار كان لابد من تعيين وصي عليهم «أتابك» حتى يبلغوا سن الرشد. بالإضافة إلى شكل السلطة كان وراء قيام تلك السلطة المركزية القوية التي كانت سطوتها محسوسة في أقاصي أقاليم الدولة وأعمالها. ففي حين كانت المدن بالشام أيام الأيوبيين دويلات مستقلة تقريباً يتسلط فيها أمراء الأسرة الأيوبية من أولاد وأحفاد السلطان صلاح الدين وأخيه العادل، كان السلطان المملوكي هو الذي يعين النواب في المدن والأقاليم والأعمال بشكل مباشر، وهو الذي يعين صاحب ديوان الإنشاء في مصر والشام وقضاة المذاهب الأربعة وكان السلطان الظاهر بيبس أول من عين قضاة قضاة أربعة للمذاهب الأربعة، الذي لم يكن في العصر الأيوبي. وأضيفت للسلطان في عصر المماليك البحرية مهمة جديدة هي الذهاب للحرب مع أنها كانت موجودة لدى الأيوبيين ولكننا لا نجد لها خلفاء المسلمين كالعباسيين والفاطميين، فهؤلاء لا يذهبون إلى الحرب، إنما يولون قواً من قبلهم. ولكن سلاطين المماليك والأيوبيين، كانوا يذهبون على رأس الجيوش للحرب أو لقمع الثورات والفتن. كذلك يقوم سلطان المماليك بدور هام في السياسة الداخلية. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يرسم السياسة الخارجية، ويستقبل رسل الملوك. يساعده في الأمور العسكرية والداخلية الوزير. والواقع أن منصب الوزير في عهد المماليك كان في المرتبة الثانية بعد السلطان، إذا وجدت وظيفة نائب أو نائب السلطان.

2- نائب السلطان

كانت نيابة السلطنة هي أعلى الوظائف في الدولة المملوكية ويسمى أيضاً بالنائب الكافل والكافل للمماليك الإسلامية وهو السلطان الثاني في الدولة وصلاحياته واسعة. وكان يستطيع استعراض الجيش دون مشاورة السلطان ولم يكن يحتاج للعودة إلى السلطان في ترقية أفراد الجيش إلى رتبة إلا مرة واحدة. وتقرأ عليه قصص الناس وكان يصدر المراسيم من دون الرجوع إلى السلطان باستثناء الأمور الصعبة التي كان لا بد من إحاطته بها، كما كان يتأسس مجالس المظالم. أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتاب

السر وقل أن لا يجاب فيمن يعنيه، وهو سلطان مختصر بل هو برأس الجيش في أيام المراكب وينزل الجميع في خدمته فإذا مثل في حضرة السلطان، وقف في ركن الإيوان. أُلغي منصب نائب السلطان بموت السلطان الناصر محمد إلا أنه أعاد تجديده فيما بعد ولكن دون استعادة المنصب أهميته السالفة ولم يعط صلاحيات غير عادية، وكان نائب السلطان يقوم بها القائم بأعمال السلطان عند غيابه في ظروف تستدعي رحيله من العاصمة أو عند قيامه بإرسال حملة عسكرية.

3- أتابك العسكر

بعد إلغاء منصب نائب السلطان الذي كان يقوم بتأدية تلك المهام أقدم الأمراء رتبة من الموجودين في العاصمة، وكان يلقب وظيفة في العصر المملوكي بنائب الحماية أو أتابك العسكر. هو كبير أمراء المماليك وكان شائعاً أن يخلف السلطان العرش وكان قائداً أعلى للجيش وهو ما يعرف حالياً القائد العام للقوات المسلحة. ولكن وظائفه كانت أوسع كما تشير المصادر إلى ذلك وهو «مدير الملك» وإن كان لقب أحياناً باتابك الجيش أو بأتابكي الجيش وليس من الواضح تماماً إذا كان لقب أمير الجيش يعني أتابك الجيش أم لا، حيث اختصر اسمه إلى «الأتابكي» وهو أمير أب، والمراد أبو الأمراء أو الأمير المربي، وهو أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام. ويقول ابن تغري بردي إن الأتابك كان يطلق عليه لقب «باكلارياتي» ومعناها أمير الأمراء وهو شموخ العمرى. وبالإضافة إلى أتابك العسكر كان للجيش قواد يسمون الأمراء ووظائفهم الإمرة «وكانت الإمرة لجيش المماليك يصل إليها المملوك بالتدرج في الترقى».

4- ناظر الجيش

يرأس ديوان الجيش موظف كبير يطلق عليه اسم ناظر الجيش ووظيفته «التحدث في أمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان وأخذ خطه وهي وظيفة جلييلة رفيعة المقدار». وهو يشبه ما يسمى وزير الدفاع حالياً. هذه أو وزير الحرب وذلك هو المسؤول عنها يشرف على الجيوش وما يتعلق بها من جميع النواحي في ذلك العصر الذي كان فيه للجندى مكانة رفيعة. ويدل على صحة هذا القول ما رواه خليل ابن شاهين الظاهري: «أنه أصبح أهل الدراية بتدبير المماليك ومن أنصف إصلاحها بإيضاح الطرق والمسالك. أنه فراسة المملكة وسياسة الدولة، وضبط أمور الجيش وحفظ أموال الجندي فإنه قطب مدارها، وسبب استقرارها فيتعين الاعتناء به والنظر في مصالح كتابته، فإن شأنه أرفع. وديوانه أجمع وعمله أوسع. ولاسيما في دولة فسيحة الأطراف، واسعة الأكناف. وقد دلت جريدة جيشها على الآلاف، تحتاج إلى ترتيب منازلها على قدر طبقاتهم وضبط إقطاعاتهم ورعاية مبادئ مددهم وأقواتهم، ومعظم هذه الأمور معروفة بناظر الجيوش المقصود والمشار إليه والذي مداره جميع أموال المملكة على ما يصدر عنه ويرد إليه». يساعده ثلاثة معاونين وهم:

5- صاحب ديوان الجيش

«ولناظر الجيش أتباع بديوانه يولون عن السلطان. كصاحب ديوان الجيش وكتابه وشهود». كذلك تستطيع أن تقول إنه صاحب ديوان المماليك وكتاب المماليك وشهود المماليك.

6- مستوفي الجيش

ويقوم بتحديد مرتبات الجند التي كانت تدون في كشوف خاصة وتعتمد من السلطان وكان يشرف على هذا العمل شخصان الأول يتعلق بمصر والثاني بجند الشام، ويرجع السبب في ذلك أن ديوان الجيش كان له فرعين رئيسيين أحدهما ديوان الجيش المملوكي والثاني ديوان الجيش الشامي. وقد وزع اختصاص هذين الشخصين على ذلك النحو لأن ديوان الجيش المملوكي كان منقسماً في حقيقة أمره إلى ديوانين وكل منهما يتولى أمور الجيش في مصر والشام طبقاً لاختصاصاته.

7- مستوفي الرزق

وهؤلاء الموظفون الثلاثة يقومون بعمل هيئة الشؤون المالية للقوات المسلحة في الوقت الحالي. وكان يشترط في هؤلاء الموظفين أن يكونوا على جانب كبير من الأمانة والدقة في تصريف الأمور التي يكلفون بها والدراية التامة بدقائق أعمالهم وكان يعمل مع هؤلاء عدد آخر من الكتاب والشهود، إذ أن هذا الديوان يشرف على جميع جنود الدولة المملوكية بما فيها المماليك السلطانية الذين يؤلفون قسماً هاماً من جيش المماليك.

8- نقيب الجيش:

ويساعد ناظر الجيش موظف كبير عرف باسم نقيب الجيش. «وهي موضوعة لتملية الجند. في عرضهم، ومعه يمشي النقباء. إذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً أو غيره أحضره. هو كأحد الحجاب الصغار وله التطلب بالحراسة في الموكب والسفر». كما يتكلم عند وقت محاكمة الخصوم من المماليك في الطباقي القلعة وينقل إجابته إليه. وتشبهه وظيفته مدير الشرطة العسكرية حالياً. أما المماليك الشامية «فإنه يقال في مثله نقيب النقباء». وكان نقيب الجيش يختار من أمراء العشرات ويتمتع صاحب هذه الوظيفة بنفوذ كبير على كافة الناس، يخشون بأسه وجبروته، وفي ذلك يقول المقرئ بما يفيد أن نقيب الجيش كان يأخذ أموال الناس بالباطل حيث يقول: «وأخذوا أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد إلى باب الخاص ويضيفون إلى أكلمهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على الله تعالى بالكذب، فيقولون على المال الذي يأخذونه باطلاً: هذا حق الطريق والويل لمن ينازعهم في ذلك». بالإضافة إلى ذلك نجد من جملة اختصاصاته أيضاً أنه يقوم باصطحاب الأمراء والموظفين المغضوب عليهم من السجن إلى البلاط السلطاني أو بالعكس من البلاط السلطاني إلى السجن وكذلك يصحب كل من الأمراء والموظفين المخلوعين إلى الأماكن التي تم نفيهم إليها ويقوم بتوصيل الأمراء المحكوم عليهم بالإعدام إلى ساحة الإعدام، كما كان عليه أن يعلن للجيش بتجهيز نفسه لاستعراض عسكري أو حملة عسكرية وثم كان في استطاعته أن يرسل نقباء وأجناد الحلقة الذين تحت أمرته إلى القاهرة وضواحيها، كما كان يرسل البريدية إلى مناطق مختلفة من مصر.

9- نقيب المماليك

فقد كان بجانب نقيب الجيش في العصر المملوكي البحري وظيفة نقيب المماليك لمعاونة ناظر الجيش أيضاً في إدارة ديوان الجيش. ويبدو أن اختصاصاته كانت محدودة بالمماليك أو على أدق تعبير بالمماليك السلطانية. وقد ذكر أحد الأمراء أنه كان نقيباً للجيش وأنه كان يشغل منصب نقيب المماليك.

10- أمير السلاح

وظيفته تعادل وظيفة مدير الأسلحة والذخيرة في القوات المسلحة حالياً، ويلقبه السلطان «بالأخ». فكان واجبه الرئيسي حمل أسلحة السلطان أثناء ظهور السلطان أمام الجمهور، كما كان مسؤولاً عن «السلاحارية» أو «السلاح خاناه». وكان يشغل ذلك المنصب واحداً من الأمراء المقدمين.

11- أمير خمسة

وكان الأمراء يتدرجون من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مئة، ويتميزون في درجاتهم بإعداد الجند تحت أمرهم، وبأعداد المماليك الذين يملكونهم وحتى بعلامات تشريفية وهي نوع من الزنوك يتخذونها شعاراً له. أما أمير خمسة فكان في خدمته خمسة مماليك وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين أو من أبناء الأمراء المقدمين، ويمنح الواحد هذه الرتبة تقديراً لخدمات أبيه إذ كانوا يعدون من المقربين ولقد وصل عددهم في الجيش إلى ثلاثين. وهم في الحقيقة كأكابر الأجناد.

12- أمير عشرة

فكانت عند كل أمير منهم عشرة مماليك أو فرسان وربما منهم من يدخل تحت أمرهم عشرون فارساً، ولكنه مع ذلك لا يعد إلا من أمراء العشرات الذين كان عددهم يبلغ نحو خمسين أميراً. ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف.

13- أمير طبليخاناه⁽⁷⁰⁾

فكان يمكن أن يطلق عليه أيضاً اسم أمير الأربعين وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً. وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً ولا تكون الطبليخاناه لأقل من أربعين. وغالباً عندما كان يموت، تقسم إمارة الأربعين إلى إمارة عشرين، أو إلى أربع إمارات عشراً، أو العكس تجمع لتصبح أمير أربعين وقد تسمى منهم أمير طبليخاناه بهذا الاسم لأن أصحاب هذه الرتبة كان أعلى من أمير أربعين درجة في الرتبة. «هو الذي يضرب على الطبل ومُ نفر وهو الذي يضرب بالبوق وكُوسي، وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصناعات».

14- أمير مجلس

مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية، يسمى أمير طبليخاناه لا حقيقة في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المنين.

ويشبه وظيفة مدير الخدمات الطبية للقوات المسلحة حالياً . وقد كان أمير المجلس مسؤولاً عن أمير الأطباء الباطنيين الكدّالين ومن هم على شاكلتهم وكان ذلك المنصب يشغله شخص واحد ولم توضح المصادر العلاقة بين رتبة أمير المجلس وبين هذا العمل المحدد الذي كان لا يبدو وأنه كانت له أهمية خاصة بالرغم من أن رتبته أمير المجلس.

15- الداودار الكبير

وظيفته تطابق مدير شؤون الضباط بالقوات المسلحة حالياً، فقد كان عمله الرئيس المكاتبات السلطانية، تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إليه والمشاورات على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد وهو أمير جاندار وكاتب السر ويأخذ الخط على عامة المناشير والتوقيع والكتب. وكان السلطان الظاهر ببيرس هو أول من جعل شاغل هذا المنصب من بين الأمراء المهمين إلا أنه أصبح في أيام حكم الجراكسة بعد ذلك من بين كبار الأمراء السلطانية. وكان من بين جند الحلقة من هو أجدر بالإيفاد في مهام عسكرية.

16- أمير أخور

وهو ما يشبه مدير المركبات بالقوات المسلحة حالياً . وكانت مهام وظيفته هي رئاسة الإسطبلات السلطانية حيث توجد خيل السلطان التي يستخدمها في حروبه. وهو الذي يكون ساكناً بإسطنبول السلطان وكان تحت أمرته ثلاثة من أمراء الطبلخانا، وعدد لا يحصى من أمراء العشر وغيرهم.

17- رأس النوبة

وهي وظيفة تطابق وظيفة رئيس هيئة التنظيم والإدارة بالقوات المسلحة. وهو مسؤولاً عن المماليك السلطانية وهم جند السلطان ذاته وكان عليه مراقبة ملوكهم. بجانب أنه كان يتولى تنفيذ أوامر السلطان، كما كان مسؤولاً أيضاً عن الاستعراضات التي يقوم بها الجيش قبل القيام بإرساله إلى مهمة في الخارج. ولقد استحدث رئيس النواب بعد إلغاء منصب رئيس نواب الأمراء، وكان هذا المنصب يعرف قبل ذلك برئيس نوبة وأحياناً «رئيس النوبة الكبرى»، وكان عدد الذين يشغلون منصب رئيس النوبة أربعة وهو مقدم ألف وثلاثة أمراء طبلخانا.

18- صاحب الحجاب

وهي وظيفة تشبه مدير إدارة القضاء العسكري في القوات المسلحة حالياً . فكان من واجباته الرئيسة النظر في القضايا بين الأمراء والجنود. كما كان أيضاً من واجبه الرئيس تقديم المبعوثين والضيوف إلى السلطان، وهو المسؤول أيضاً عن ترتيب الاستعراضات في الجيش.⁽⁷¹⁾

19- أمير خازندار

هو يشبه وظيفة مدير السجن الحربي حالياً . وهو المسؤول كذلك عن الزردخانا وهي خزائن السلاح، وكان يقوم باعتقال من ينفذ عليهم العقوبة التي قد تصل في بعض الأحيان إلى القتل ومن هنا جاءت التسمية «أمير خازندار».⁽⁷²⁾

20- أمير مئة مقدم ألف

كانت هذه الأمرة وظيفة حربية وتقترب عادة بلقب مقدم ألف فيقال «أمير مئة مقدم ألف» والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة. وهي أن يكون في حوزة هذا الأمير مئة مملوك وهو في الوقت نفسه مقدم في الحرب على ألف جندي من أبناء الحلقة. وكان المقربون منهم إلى السلطان يسمون الأكابر .

21- مقدم المماليك

وقد جرت العادة على تعيين خمسة من الحجاب، اثنان منهم وهم صاحب الحجاب والحجاب الثاني وهما أمراء الألف وقد قلت وظيفة الحجاب الثاني لتصبح أمير عشرة، وعندما أنشأت هذه الوظيفة كان هناك ثلاثة حجاب وقد زاد عددهم السلطان إلى خمسة، وكان أقلهم في الرتبة يشغل منصب أمير عشرة.

هذا الاسم يتركب من ثلاث كلمات: أولها أمير والثانية حان ومعناها بالفرنسية والتركية " الروح" والثالثة دار ممسك فيكون المعنى المقصود "الأمير الممسك بالروح".

ووظيفته تسمى مقدم المماليك ويشرف على تعليم مماليك السلطان والأمراء في المدارس العسكرية والحكم فيها ولا يكون صاحبها إلا من الخدام،والعادة أن تكون أمة طبلخاناه وله نائب أمير عشرة.

22-قاضي العسكر

فلقد كان للجيش المملوكي قضاة مختصون بشؤون الجند وكان الواحد منهم يعرف باسم «قاضي العسكر» وكان عددهم ثلاثة، وأحدهم شافعي والثاني حنفي والثالث مالكي وأحياناً كان يوجد قاضي حنبلي، ولكن في أغلب الأحيان كان منصبه خالياً، إما لعدم وجود حنابلة في الجيش المملوكي، أو على حد قول القلقشندي: «ليس للحنابلة منهم حظ». وكان هؤلاء القضاة يحضرون مع الفقهاء الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة. وكانوا يرافقون السلطان في أسفاره، كما كانوا يرافقون الحملات العسكرية للفصل بين أفرادها، فضلاً عن الفصل في الخلافات التي قد تنشأ بين الجند في تقسيم الغنائم أو تقسيم ميراث أحد المتوفين من الجند. ولم يكن لقضاء العسكر ولاية على غير العسكر، فلم يفصلوا بين الصناع والعمال وغيرهم ومنذ أن كانت وظيفتهم الأساسية الفصل في القضايا الخاصة بالعسكر، أو التي تقوم بين العسكر والمدنيين، حتى أنها كانت تمثل القضاء العسكري في الوقت و...الح.

ՌԱԶՄԱԿԱՆ ՊԱՇՏՈՆՆԵՐԸ ՄԻՋՆԱԴԱՐՅԱՆ ԵԳԻՊՏՈՍՈՒՄ

Արթուր Իսրայելյան

(ամփոփում)

Եգիպտոսը այսօրյան և մամլուքյան սուլթանությունների դարաշրջանում մշտապես եղել է ճակատամարտերի և ապստամբությունների կենտրոնում: Մույն պատմագիտական հոդվածի նպատակն է լուսաբանել միջնադարյան Եգիպտոսում այսօրյան և մամլուքյան ռազմական պաշտոնները, դրանք զբաղեցնող անձի գործառնությունները պատերազմների և խաղաղ ժամանակաշրջանում: Արաբական սկզբնաղբյուրների հիման վրա հանգամանորեն ուսումնասիրվել է քսաներկու ռազմական պաշտոն՝ սուլթանից մինչև ռազմական դատավոր: